تجلّيات السّخرية في شعر النّقائض –ردّ جرير على خُصومه أنموذجا-

Satirical Renditions in Antitheses Poetry. The Case of Jarir's Response to his Opponents

ط.د سهى حيمور1، * ، أ.د عبد العزيز بومهرة 2

[1] جامعة قالمة، (الجزائر)، himour.souha@univ-guelma.dz

[2] جامعة قالمة، (الجزائر)، boumahra.abdelaziz@univ-guelma.dz

مخبر الدراسات اللغوية والأدبية

تاريخ الإيداع: 2022/12/10 **تاريخ المراجعة**: 2023/02/07 **تاريخ النشر**: 2023/06/30

ملخص:

ينصرف القصد في هذا البحث إلى دراسة وتحليل نماذج من شعر النّقائض لاستخراج أهم تجليات السّخرية فيه، هذا النّوع من الخطاب السّاخر يعود سلبا على الفرد أولا، ثمّ المجتمع بأكمله؛ إذ يؤثر على نفسيات الأفراد وتصرّفاتهم، ومنبع هذا الخطاب هو النرجسيّة وحب الظهور والتعالي؛ الّتي يُعزَى سبب تولّدها إلى شخصيّة الشّاعر وعلاقاته مع خصومه والبيئة المحيطة به؛ وذلك بتصويره مخالفا أو خصما، ولبيان ذلك أخذنا شعر النّقائض الذي ظهر في العصر الأموي نموذجا للدّراسة، فالنّقائض في الأصل مُنافرات وخُصومات شعرية تُبنى على السّخرية، وليست عداوة، بالمعنى الحقيقي؛ إذ إنّها أقرب إلى المباريات في ادعاء معرفة الآخر وإلصاق الخصال الذّميمة به، وخصصنا البحث في سخرية جرير بخصومه، متوخين في ذلك المنهج الوصفي التحليلي.

الكلمات المفتاحية: السّخرية، النّقائض، التجلّيات، جرير، الفرزدق، الأخطل.

Abstract:

The main aim of the present study is to examine and analyze some samples of antitheses satirical poetry by highlighting some of their most essential demonstrations of irony. Regarding this typical discourse of satire, it is worth saying that it has a drastic negative effect on the individual in the first place as well as society as a whole since it impacts negatively man's psyche and their attitudes. Moreover, it can be said that several factors are placed at the origin of such a discourse including narcissism and one's feeling of superiority which are considered as some of defining attributes of the poet's personality in his attempt to expose human flaws in society. Following a descriptive analytical approach, a case study has been selected so that to meet the study objectives in which one opted to examine some examples of antitheses in poetry that appeared during the Umayyad period. In fact, satire as a poetic device is characterized by contradictions that are ironical in essence. To better elucidate this reality, one seeks to shed light on Jarir's ironical renditions.

***Key words**: Satire, Antitheses, Demonstrations, Djarir, Farazdaq, Akhtal.*

***المؤلف المراسل.**

المقدّمة

تختلف أساليب السّخرية وتتنوّع طُرقها من شخص لآخر، إلّا أنها في النّهاية تخدُم غرضا واحدا هو التّقليل من شأن الغير واحتقاره وإضحاك النّاس عليه، فتظلّ هذه النّتيجة مهما اختلفت الأسباب والنّوايا محلّ جدلٍ ونزاع؛ وقد كانت النّقائض موضوعا يرتكز على السّخرية في بنائه حتى باتت ظاهرة فنّية منتشرة لدى كلّ الشّعراء؛ ثمّ إذ بهذا النّوع من الأدب يزدهر، ويتطور في العصر الأموي مع فنّ النقائض، حتى أضحت مدرسة هجائية ساخرة، ولمّا كان جرير أكثر باعا في السّخرية من الفرزدق والأخطل فقد كان التّهكم والتّصوير الضّاحك مذهبا لديه يوردُه كثيرا، حتّى صار فارس السّخرية آنذاك ويمكن القول إنّه رائد هذاالنّوع في الأدب العربي كافّة، هذا ما ألفيناه في قصائده، وشهد به النقاد والدارسون، لذا اخترنا ردوده الساخرة على خصومه نموذجا للدراسة والتحليل، والوقوف على أهم تجليات السّخرية في خطابه الشعري.

وإلحاقا بما سبق فإنّ الدّراسة ستُجيب عن التساؤلات الآتية:

- كيف تجلّت السّخرية في شعر النّقائض انطلاقا من ردّ جرير على خصومه؟
- وهل يُمكن فعلا عدّ النقائض خطابا يحثّ على الكراهية من خلال السخرية الموغلة في شعره، أم أنها مُجرّد خطاب ساخر يجب ألَّا نأخذه كمسلّمة؟

هذا، وغيره من الإشكاليات التي نعالجها في هذا المقال، وقبل أن نُعَرِّجَ على حيثيات موضوعنا نورد طرفا من المفهوم اللغوي والاصطلاحي للسخرية.

أولا: مفهوم السّخرية:

1- لغة:

يلامس تعريف السخرية في الجانب اللغوي مؤدّى الاستهزاء والضحك فقد ورد في لسان العرب: سَخرَ مَنْهُ وبِهِ سَخْرًا ومَسْخَرَةً: هَزِئَ بِهِ، وَالاسْمُ السُّخْرِيَةُ والسُّخْرِيّ والسُّخْرَةُ: الضِّحْكَةُ[1]، وعند الزمخشري: "فُلان سُخْرةٌ وسُخَرة: يضحك منه الناس ويضحك منهم"[2]، وهو يتفق مع ابن منظور في أن مؤدَّى السخرية هو الضحك.

وفي تعريف آخر لا يختلف مفهوم السخرية عما ذكرناه سالفا، حيث وردت على أنها: "سَخَرَ مِنْهُ وبِه، كَفَرِحَ، سَخْرًا وسَخَرًا وسُخْرَةً ومَسْخرًا وسُخْرا وسُخُرًا: هَزِئَ، كاسْتَسْخَرَ... ورجلٌ سُخَرة، كهُمزةٍ، يَسْخَرُ من الناس"[3]، فهي تعني إذن الاستهزاء والاستخفاف بالأمر والعبث به.

إن ما يتأتّى بيانه ممّا سلف إيراده أن تعريف السخرية في الشق اللغوي، غالبا ما أدى معنى الضحك، والاستخفاف، والتهكم، والانتقاص.

وفيما يأتي نُعرّج على الجانب الاصطلاحي لنقتفي مفهومها بصورة أعمق، ومن ثمَّ الإبانة عن معالم التشافع بين التعريف اللغوي، والمفهوم الاصطلاحي.

2- اصطلاحا:

إن الباحث في مجال السخرية كثيرا ما يَرْتَكِسُ بعقبات تَحُول دون الإلمام الجامع بهذا المصطلح ضمن مفهوم واحد، وذلك لكونه يشتبك بدلالات متعدّدة، يحدّدها السياق المنوط به أثناء الاستعمال، الأمر الذي نحاول التطرّق إليه فيما يأتي:

وأول ما تجدُر الإشارة إليه، أن هذا المصطلح يحمل معنيين أحدهما عام والآخر خاص؛ فالأول منهما يعني أن" السخرية أسلوب كلامي يبعث على الضحك، وأما الخاص فهو السخرية كأسلوب عدائي موجه من العدو للطرف الآخر بهدف إثارة عوامل نفسية وفكرية تجعله يشعر بالقلق والخوف والضحك"[4]، ويختلف المعنى باختلاف السياق الذي تستخدم فيه.

يُعرف شوقي ضيف السخرية بأنها:" أرقى أنواع الفكاهة، لما تحتاج من ذكاء وخفاء ومكر، وهي لذلك أداة دقيقة في أيدي الفلاسفة والكتاب الذين يهزؤون بالعقائد والخرافات، ويستخدمها الساسة للنكاية بخصومهم، وهي حينئذٍ تكون تهكُّما أو تقريعا خالصا"[5]، وربطه السخرية بالفكاهة والاستهزاء جليّ وواضح، في حين يراها من أجلّ وأدق الآليات التي تمكّن المبدع من التمثيل الموجه لصالح سياق ما، غالبا ما يكون بغية التهكّم الهادف.

وقد وظفها أدونيس في كتابه زمن الشعر بمعنى " الهزء والتذليل والاحتقار"[6]، إذ خرج بها عن المعنى المألوف المرتبط بالتهكم والاستهزاء والفكاهة.

ويبدو أن السخرية في أبسط تعاريفها هي:" طريقة تهكمية تقول عكس ما نود تبليغه عبر بلاغة المعنى المقلوب، وهي بهذا التحديد تريد شيئا وتظهر غيره، وهي في كل الأحوال خطاب ظاهره جدّ وباطنه هزْل، ولئن كان هذا التعبير مخالفا للحقيقة، فإن الغرض منه تقويم السلوك بطريقة الفكاهة، وسرعة البديهة "[7]وهي تقُوم أساسا على عيوب وأخطاء الغير التي لا تحتمل وجودها، وتسعى لإبرازها بأساليب مختلفة.

ثانيا: السّخرية في العصر الأموي:

إن تقصي مفهوم السخرية عبر أزمنة الأدب القديمة يطيل بحثنا، لذا اكتفينا بما اتصل به، وهو زمن الشعر في عهد الأمويين، توافقا مع النموذج المختار، فالسّخرية من أبرز الصّفات الّي اتّسم بها الأدب الأُموي، إذ تكاد تكون ظاهرة فنّية شائعة فيه، ولاسيما في النّقائض الّتي شبّت وترعرعت في هذا العصر؛ وقد غذّتها العصبيّة القبليّة الي تأجَّجت في العصر الجاهلي، فكانت السّخرية امتدادًا للهجاء الّذي هو من أبرز الموضوعات في تلك الحقبة.

واختلفت مقاصد السّخرية لدى الشّعراء الأمويين، وتنوّعت بين الضّحك؛ كما ورد عن الشّاعر جرير قوله "إذا هجوت فأضحِك"[8]، لهذا كان الهدف الأول من السّخرية عند شعراء ذلك العصر هو الإضحاك، والمقصد الثّاني هو المداعبة والمزاح بين الشّعراء أنفسهم بُغية استظهار مقدرتهم اللّغويّة وتمكّنهم من تصريف فنون الكلام، أو مع الحُكّام وأصحاب القرار بغرض التّقرب لهم ونيل الحُظوة لديهم، ومن المقاصد الأخرى نجد السّخرية الصّريحة التّي كان الغرض منها الحطّ من قدر الآخر، والإقلال من شأنه.

وامتدادا لهذا النّوع الذي برز في العصر الأموي جاءت النقائض بحلّة هجائية ساخرة، فبرز العديد من الشعراء الذين اتسمت خطاباتهم الشعرية بالسخرية ولو أنها برزت في كثير من الأحيان بصورة هجاء مقذع، وبرَّر فيه الشاعر ميولاته وأفكاره تجاه خصومه.

ويعدّ جرير بن عطية من أبرز الشعراء الأمويين الذين برعوا في هذا الاتجاه الساخر في شعرهم، وبخاصة في معركته مع الفرزدق والأخطل، وفيما يأتي نبحث تجليات السّخرية في أشعاره.

ثالثا: تجليات السخرية في النقائض –رد جرير على خصومه أنموذجا-

اشتهر العصر الأموي بتعدّد التوجّهات السياسية، وانشغال العامة والخاصة بالسياسة فوجدنا بأن النقائض جاءت صدى لهذا السبب الذي أسهم بشكل كبير في ظهور هذا النوع من الخطاب السّاخر آنذاك.

وبما أن الكراهية هي تلك الأحاسيس السلبية التي تجتمع عند الفرد مشكّلة حالة من الرفض والمقت وحب الأذية تجاه فرد أو مجموعة من الأفراد، فإنّ الخطاب الساخر هو ذلك الخطاب الدّاعي إلى نبذ الآخر لأيٍّ مِنْ الأسباب، والدعوة لأذيته لفظيا ومعنويا، والنّقائض على اختلاف أهداف كتابتها التي ربما من أهمّها كسب الإعجاب والشعبية و التباهي على حساب الآخر قد كانت "كلّها نوعا من الجدل والمهاترة"، وتبقى تدعو للكراهية من خلال ذكر مساوئ الطرف الآخر، ومثالبه والسّخرية منه، والطعن في نسبه وانتمائه وحتى ديانته، وإضحاك الآخرين عليه.

ومن خلال الاطلّاع على شعر جرير يستطيع الباحث الوقوف على كثير من الأبيات التي اتخذ فيها شؤون الآخر، وحياته الخاصة مطية لهجائه والانتقاص من شأنه، فتجلّت السّخرية في شعره وبلغت أوجها، وبدت في عدّة مواضيع أهمّها:

1- وصم الأعداء باللؤم:

لطالما وردت قصائد جرير مشحونة بنبرته التهكمية السّاخرة والتي يلجأ إليها دائما كسلاح يشهره في وجه ما لايروقه؛ وقد تجلّت السّخرية عند جرير من خلال هجائه للفرزدق والأخطل والرّاعي النّميري. يقول:[9]

وَأُمُّـكُـــــمُ قُـفَـيـــــرَةُ رَبّـتـكُـــــمْ بِـدَارِ اللُّـــؤْمِ في دِمَـــنِ النَّبَـــاتِ

وهو هُنا يُشير إلى أن الفرزدق تربّى على اللّؤم منذ نعومة أظافره، فيسخر منه بأن لؤمه جعل منه شخصا بخيلا شحيحا، والسبب في ذلك راجع لأمّه الّتي ربّتهم بدار اللّؤم، فاستعمل جرير هنا مفردة دار لبيان أن اللؤم فيهم أصل في تربيتهم، وفي السياق نفسه يُضيف:

وَاللّؤُم حَـالَفَ تَيْـمًا فِي دِيَارِهُمُ واللُؤم صُـيِّرَ في تَيـم إذا حَـضَرُوا[10]

إنّ قوم الفرزدق قد توارثوا اللّؤم من آبائهم وأجدادهم؛ ونبت فيهم، بل حالفهم، فهم تربّوا عليه، ومتمسّكون به، ومصرّون عليه، والسّخرية في هذا الموضع تنبع من الفعل "صُيّر" المبني للمجهول والذي صوّر اللّؤم المتجذّر فيهم. فمناسبة المجهول لمن يراه جرير مجهول، وافقت السياق الساخر في هذا البيت الشعري، وتكرار كلمة اللؤم في الصدر والعجز أكد المعنى ورسخه.

وممّا يُعمّق معنى السّخرية لديه قوله في موضعٍ آخر:

مِنَ الأَصْـلَابِ يَنْزِلُ لُـــؤْمُ تَيْـــمٍ وَفِي الأَرْحَـــامِ يُخْـــلَقُ والمَشِـــيمِ[11]

أيّ أنّهم توارثوا اللّؤم من أصلابهم وأرحامهم، وهو هنا ينسِب هجائه الذميم ليس له كشخص فحسب، بل لكلّ قبيلته وآله، وما يزيد من سخريته أنه يؤصلها ويجعل لها جذورا مبالغة في السخرية به، فيصف لؤمهم بأنه يخلق خلقا من بعد خلق، فنشأ في رحم أهله وذويه، وكلها عبارات ساخرة تحط من شرف الفرزدق، وتهزأ به.

2- الطعن في المبادئ والدين:

لقد سلك جرير خطة في خطابه الشعري لمزيد من السخرية بالفرزدق، والإيغال فيها حدّ الهجاء المقذع في بعض الأحيان، فتراه يقول مزدريًا ضعف الوازع الديني عنده ساخرا من عدم ثبوته على دينه ومبادئه[12]:

أَلَّا قَـــبَّحَ الله الفَـــــرَزْدقْ كُلَّـــما أَهَـــلَّ مُـــــصلّ لِلصَّـــــلاة وكَبَرَا

فَـــلاَ يَقْرَبَنَّ المَرْوَتَيْـــنِ وَلاَ الصَّفَـــا ولاَ مَسْجِـــدَ الله الحَـــرَام المُطَهَّـــرَا

فَإِنَّك لَـــوْ تُعْـــطِي الفَرَزْدَقَ دِرْهَمَـــا عَلَى دِيـــــنِ نَصْـــــرَانِيّـــة لَتَنَصَـــرّا

فالسخرية بدين الرجل طعن في شرفه، ومكانته، كيف لا والفرزدق شاعر معروف ومشهور، حيث يصوّره جرير في هذه الأبيات بائعا دينه بثمن بخس، فبالغ وأقذع في سخريته حتى بلغ بها حد الهجاء المقذع، فلا شيءَ أقبحُ من أن يُطعن المرء في دينه ومُعتقداته، وأن يكون كمن لا دين له، فهذا باعث على الخِزي. يقول فلو أنك تعطي الفرزدق درهما من أجل ترك الإسلام ودخوله النصرانية ستجده ملبيا سامعا طائعا في ذلك، وهذا تلميح إلى حقارته ووضاعته وعدم استقامته لأنه يبيع دينه ولو وُهب له مقابل ذلك دينار واحد.

ويقول جرير في سياق آخر، يشبّه فيها دين الفرزدق وهو الشاعر الفحل المعروف، بدين ليلى، وليلى هذه هي: «ليلى بنت حابس أخت الأقرع بن حابس هي أم غالب بن صعصعة أبي الفرزدق، وكان لصعصعة جد الفرزدق قيون، منهم جبير ووقبان وديسم فلذلك جعل جرير مجاشعا قيونا»[13]، ويقول أيضا[14]:

فَدِينُكَ، يَا فَـرَزْدَقُ، دِينُ لَـيْلَى *** تَزُورُ القَـينَ* حَـجًا وَاعْتِمَارَا

أي أن الفرزدق على دين أُمّه (ليلى) التي تعتبر زيارتها للقين، ولطالما عاب العرب أصحاب الحرف والصّنائع، وليلى أمه التي تعتبر زيارتها للحدّاد حجا وعمرة، من كثر ما تقبل عليه، وهو ما يُعيرها به جرير. لتمتد سخرية جرير إلى أجداد الفرزدق ولا تتوقف عنده فقط.

يقول في موضع آخر[15]:

رَهْطُ الفَرَزْدَقِ مِنْ نَصَارَى تَغْلبٍ أَوْ يَدّعِي كَذِبًا دَعَاوَةَ زُورِ

حُجّوا* الصّلِيبَ وَقَرّبُوا قُرْبَانَكُمْ وَخُذُوا نَصِـيبَكُمُ مِنَ الخِنْزِيرِ

إنّي سَأُخْبِرُ عَـــنْ بَلَاءِ مُجَاشِـــعٍ مَنْ كَانَ بِالنّخبَاتِ غَيْرَ خَبِيرِ

فهنا يطعن جرير في نسب الفرزدق، فينسبه إلى النّصارى، مع يقين جرير بأنه مسلم، ولكنه يسبغ عليه صفة غير إسلامية، للإيغال في الهجاء، فجاء خطابه سخريّة لاذعة في تصويره لحالهم، وأن من خصائص قومه الذين هم نصارى، مغالاة في السخرية منهم بصورة هزلية ومضحكة، الولوع بلبس الصليب وأكل الخنزير، وهذا مزايدة من جرير، فالفرزدق مسلمٌ أبا عن جدّ، وسيخبر عن آل مجاشع، وهم قوم الفرزدق، بحالهم وأنهم لا خبرة لهم، حيث ابتدأ جرير هجاءه من الفرزدق وُصولا لآله وعشيرته، إيغالا في الكراهية وبثا لها، ليحوّل جرير آل مجاشع بنسبهم ودينهم وعلمهم وأدبهم وأخلاقهم، إلى قوم بُهْتٍ يعبدون الصليب وولوعين بأكل لحم الخنزير. وهذه سخرية نفى بها جرير كل الصفات الحقيقة ليثبت صفات أخرى إمعانا منه في السخرية بهم.

ولم يكتف جرير بالفرزدق وقومه فحسب، بل بلغت به السخرية إلى الأخطل وقومه. يقول فيهم:

رِجْـسٌ يَكُـــــون، إِذَا صَلُّوا، آذَانَهُمُ قَرْعَ النَوَاقِيسِ لاَ يَدْرُونَ مَا السّوَر[16]

فينعتُهم، هنا، قوم الأخطل بالرّجس، لأنهم اختاروا الباطل على الحقّ حين تنصَّروا؛ ليكتسب جرير تعاطف القارئ في سخريته من قوم الأخطل، وفي عجز البيت يسخر جرير من عادات النّصارى المتمثّلة في قرع نواقيس

الكنائس على عكس المسلمين الذين ينتظرون الأذان، ويستمعون للقرآن، فما يصنع من صنائع هي رجس، سواء كانت صلاة أو قرعا للنواقيس، لتناسب الباطل بينها وبين معنى الرجس، إذ كلُّها إلى زوال وهباء.

3- اتهام الطرف الآخر بالفواحش ومفاسد الأخلاق:

كما سخر جرير من الأخطل بشرب الخمر، تعدَّت سخريته إلى الفرزدق لفحشه وفعله الزّنى وشرب الخمر والمآثم، حيث يقول:[17]

خَرَجْتَ مِنَ المَدِينَةِ غَيْرَ عِفّ *** وَقَامَ عَلَيْكَ بِالجُرْمِ الشُّهُودُ

فاستغل جرير شهادة من وقفوا على صنيعه، أي أن النّاس كلهم شهدوا للفرزدق بالفسوق والانحلال وارتكاب الفواحش علنا غير مبالٍ وهذا من أقبح ما قد يفعله المرء في حياته.

يقول في قصيدته المُسماة "إن الفرزدق رجس"[18]:

إنّ الفَرَزْدَقَ حِينَ يَدْخُلُ مَسْجِدًا رِجْسٌ فَلَيْسَ طَهُورُهُ بِطَهُورِ

إنّ الفَرَزْدَقَ لَا يُبَالِي مُحَرّمًا وَدَمَ الهَدِيّ بَأَذْرُعٍ وَنُحُورِ

ومكمن السخرية في جعل الفرزدق عين المشبه به وهو الرجس، فينزع من الفرزدق كلّ فضيلة، وقد وصلت به الإهانة والاحتقار لدرجة أن يصفه بالرّجس؛ فالمسجد بيت الله الحرام ولا يدخله إلا من كان طاهرا نظيفا، بينما الفرزدق لا يُبالي أن يدخله رجسا وتدنيسا لحرمة هذا المكان المقدّس، وأنه لا يُبالي أن يرتكب كلّ محرّم وينتهك كل مقدّس؛ وهذا كلّه بسبب ابتعاده عن القيم الإسلامية، وكلّ هذا التّصوير ناتج عن النّظرة الدونية والكراهية من جرير للفرزدق، وقد أفاد جرير من معاني النفي الواردة في أبياته لتوكيد السخرية ها هنا، في قوله: ليس طهوره بطهور، لا يبالي ..

4- الازدراء واحتقار النسب:

لم يسلم من جرير خصومه ولا عائلاتهم، ولا حتى قبائلهم؛ فقد ورد في مواضع عدة من شعر جرير أبيات لا يتوانى فيها عن احتقار الفرزدق خاصة، والتقليل من شأنه ومن نسبه، وتكمن السّخرية في وصفه بابن القَيْن مُتعمّدا أن يعيره بأمه؛ يقول:

وَيَوْماً بِبَلْقَاءَ، يَا ابْنَ القُيُونِ، شَهِدْنَا الطّعَانَ وَلَمْ تشْهَدِ[19]

ولم يكتف بهذا فقط بل جاء ذكره في مواضع أخرى نذكر منها:

لَقَدْ كُنْتُ يَا ابْنَ القِينِ ذَا خِبْرَةٍ بِكُمُ وَعوفُ أبو قَيْسٍ بِكُم كان أَخْبَرَا[20]

ويقول:

وَمَا كُنْتَ يَا ابْنَ القِينِ تَلْقَى جِيَادَهُمْ وُقُوفًا وَلَا مُسْتَنْكِرًا أَنْ تُعْقَرَا[21]

تكرّرت لفظة يا ابن القين في الأبيات السّابقة، وجرير هنا يسخر من خصمه باستخدام أداة النّداء (يا) تابعا إياها، والنداء هنا للفت انتباهه، ثم الشّتيمة التي يشتم بها الفرزدق لتبلغ السّخرية عنده هنا أوجها لما للنداء من أثر في الحطّ من مكانته وقدره، والنّداء ظاهرة أسلوبية تُعبّر عن "طاقة لفظية مشحونة بسخرية لاذعة، تشيء بانفعالاته النّفسية المتنامية نحو الفرزدق"[22].

يقول أيضا:[23]

وَعِرْقُ الفَرَزْدَقِ شَرُّ العُرُوقِ *** خَـبِيثُ الثَّرَى كَابِيَ الأَزْنُدِ

صوّر جرير مجاشع (قوم الفرزدق) في صور ساخرة وقال إنهمُ شرّ العُروق وأخبثها على الإطلاق، «وقال: الثرى الذي فيه العروق من الشجر. قال: والكابي من الزناد الذي لا يُورى، فيقال من ذلك كبا الزند، وصلد إذا لم يور»[24]. فنسبُ الفرزدق نسبٌ خبيث لا خير فيه، وإن كثرت عروقه فقد كثر خبثه.

ومن أكثر الأبيات شهرة في السّخرية من النّسب هذا البيت الذي أشتهر به جرير، وصُنّف على أنه أجود ما قيل في الهجاء وهو قوله في الراعي النُميْري*:

فَغُضّ الطّرْفِ إنّكَ مِنْ نُميرٍ *** فَلَا كَعْبًا بَلَغْتَ وَلَا كِلَابَا[25]

وهو هنا يصمه بالذلّ الكبير، والوضاعة والخزي، لانتمائه لنُميْر وأنهم لن يبلغوا رفعة شأن كعب ولا كلاب، في تركيب كنائي يفهم من سياق العبارة، ككل ومفاده أنك مهما صنعت فلن تبلغ كعبا ولا كلابا، لأنك ببساطة من نمير، وهذا فيه سخرية بالغة، جعلت النميري يندم على مبارزة جرير، ولقبت قصيدة جرير هذه بالدامغة.

5- التنابز بالألقاب والتشبيه بالحيوانات:

كثيرا ما يلجأ جرير لاختيار صور معبرة عن خصومه، فيختار تشبيههم بالحيوانات، أو ينتقي لهم كنى وألقابا تكون مناسبة لسياق السخرية الذي ورد فيه خطابه الشعري، فيجرد الإنسان من آدميته، وينزله إلى مصاف الحيوان، مبالغة منه في السخرية، وقد ورد ذلك في مواضع عدة نذكر منها ما قاله في قصيدة له يهجو فيها الأخطل يسميها بـ" إن الأخيطل خنزيرُ" يقول فيها[26]:

إنّ الأُخَيْطِلَ خِنْزِير أَطَافَ بِهِ *** إِحْدَى الدّوَاهِيَ الّتي تُخْشَى وَتُنْتَظَر

وهو هنا لم يكتفِ بتصغيره، والتصغير دلالة على الاحتقار والاستصغار، بل وصفه بالخنزير أيضا، وجمْعه بين الأمرين يُنزل المهجوَّ لأسفلِ الدركات، وصورة الخنزير مستقبحة لدى القارئ ومرفوضة لتقاطعها مع تعاليم الدين الإسلامي ورفضها له، ولاشتراك الصفات بينهما بحسب جرير من سمنة وخبث وفساد.

يقول في هجاء قبيلة الأخطل:[27]

حَتّى سَـمِعْتُ بِخِنْزِيـرِ ضـغَا جَزَعًـا مِنْهُمْ فَقُلْتُ أَرَى الأَمْوَاتَ قَدْ نُشِرُوا

ومن الظّاهر أن جرير مُولَعٌ بوصف البشر وتسميتهم بالحيوانات؛ إذ تكرّر هذا عنده في أكثر من موضعٍ، وهو هنا يصف القبيلة كلّها بأن كلّ فرد منها هو خنزيرٌ باعتبار أن الخنزير في الإسلام نجس ورجس فهو يتعمّد الإساءة إليهم بهذا الوصف.

يقول أيضا في الفرزدق[28]:

عَشِـيّةَ لَاقَى القِـرْدُ قِـرْدُ مُجَاشِـعٍ هِزَبْرًا أَبَا شِبْلَيْن فِي الغِيلِ قسْوَرَا

وقد بلغت السخرية في هذا البيت أيّما مبلغ؛ فهو هنا يصف الفرزدق بقرد مُجاشع –نسبة لقومه-ويقول إنه لاقى أسدًا في ليلة شديدة الظّلام فتملّكه الخوف من ذلك، وهذا دليل على جُبنه وخوفه رغم أن هذا الأسد حسب وصف جرير مُسالم، فالحيوان عادة يزداد شراسة كلما كان حام لأولاده، فيصفه بقوله أبا شبلين، إلا أن

الفرزدق لا يملك من الجرأة ما يجعله يواجهه، ولايكتفي بهذا فهو يعلّق هازئا بتصويره مرّة أخرى بالخنزير. يقول:[29]

فَلَمَّا سَقَيْتُ السُمّ خِنْزِيرَ تَغْلُبٍ أَبَا مَالِكٍ جَدَعْتُ قَيْنَ الصَّعَاصِعِ

ومن هنا نرى أن تشبيه البشر بالحيوانات أمرٌ مألوف لديه، فلا يكاد يهجو شاعرًا إلا وقرنه بحيوان ما وهذا ما يولد في نفس المقصود حقدا وكُرها إذ لا يرضى أحد لنفسه مثل هته الأوصاف.

6- الوصم بالخبث و الغدر:

وقد جاءت في ديوان جرير قصائد كثيرة يذكر فيها الخبث ويسم مخاطبيه بالخبث منها ما قاله في الأخطل[30]:

يَا ابْنَ الخَبيثَةِ رِيحا مَنْ عَدَلَتَ بِنَا أَمْ مَنْ جَعَلْتَ إِلَى قَيْسٍ إِذَا ذخرُوا

وهو هنا يسخر من أم الأخطل النّصرانية ويُعيرها بالرائحة الكريهة جرّاء تناولها لحم الخنزير؛ وقد قصد أن يعيّر الأخطل بأمه بقوله ابن الخبيثة وهذه سخرية شاملة لكلّ النّصارى الذين يأكلون لحم الخنزير وبالتّالي فهو يسخر من قومه أجمعين؛ وورد ذلك في قوله عن قوم الأخطل أيضا[31]:

الآكِلُونَ خَبِيثَ الزّادِ وَحْدَهُمُ وَالنّازِلُونَ إِذَا وَارَاهُمُ الخَمْرُ

أَحْيَاؤُهُم شَرّ أَحْيَاءٍ وأَلأمُهُم وَالأَرْضُ تَلْفِظُ مَوْتَاهُمْ إِذَا قُبِرُوا

ونُحسّ أنّ السّخرية كامنه في كلّ كلمة من الأبيات السّابقة، وفي هذا نوع من التّعالي إذ أنّ السّخرية من خصمه بل ومن مجتمعه أجمع يستعين بها على الإطاحة بخصومه.

أما فيما يخص الغدر فهو يظهر في موضعٍ آخر عابثا بالفرزدق وقومه إثر حادثة عدم نُصرتهم للزّبير بن العوّام، إذ يورد القصّة ساخرا منهم، يقول:[32]

لَوْ غَيْرُكُمْ عَلّق الزُّبَيْرَ ورحلَهُ أَدّى الجِوَارَ إِلَى بَنِي العَوّامِ

وهو في هذا البيت يستصغرُهم لغدرهم بالزّبير ابن العوام ﷺ، وعدم حمايته؛ فقد استجار بهم ولم يُجيروه ولم ينصروه وهذا أمر مُخزٍ وباعث على الحياء، وقد اتّخذ منه سلاحا كي يعيرّهم ويحطّ من قدرهم أمام كلّ النّاس.

ومن خلال الأبيات السابقة نلاحظ أن جريرا " هجا خصومه بأن سلبهم كل فضيلة إسلامية، ووصفهم بكل فجور وفاحشة نهى عنها الإسلام في القرآن الكريم، أو الأحاديث النبوية الشريفة"[33].

والأبيات التي ذكر فيها ذلك تعتبر خطابا صريحا مليئا بكل ما يدعو للكراهية، والهجاء شكل وصورة من صور الكراهية في شعر النقائض يتسع " للنيل الجارح للأعراض، وإبراز المخازي، والكشف عن السوءات، فلا يعف فيه الأديب أو الشاعر عن رمي خصمه بالمثالب، وتعريته أمام الناس، ومحاولة اظهاره في صورة قبيحة تقذي بها العيون، وتشمئز منها النفوس، ويندى لها جبين الفضيلة و الإنسانية ليثير الضحك منه و السخرية به"[34]، وإذا وضعنا المرجعية الدينية في الاعتبار غير متناسين بأن جريرا مسلم أليس الأجدر بنا باعتبارنا مسلمين -والإسلام

دين التسامح والمحبة والسلام – أن نسير وفقا لتعاليم ديننا الحنيف الذي يدعونا إلى عدم التفرقة والرسول قالها في حديث صريح ألَّا فرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى، وأن جميعنا سواسية كأسنان المشط.

وإن كان هجاء جرير ينحو منحى السخرية والاستهزاء؛ فإن ما حواه من سب مقذع، وألفاظ نابية، وشتم وقذف، سمح بولوج باب الكراهية وتكريسها في أبشع صورها، وهذه كانت خطيئته الفنية على الأقل.

خاتمة:

مما سبق، ومن خلال استقصاء ومسح ديوان جرير؛ فإن السّخرية لم تتوقف في أي عصر من العصور ومادامت البشريّة تجِد في هذا النوع من الخطاب متعةً للنفوس وإرضاءً للغرور ومن خلال دراستنا لنماذج من شعر جرير التي تجلّت فيها السّخرية بامتياز نخلص إلى ما يأتي:

1- يُعتبر الهجاء شكلا من أشكال السّخرية، وصورة من صورها، وإن اختلف اسمه وتُعتبر النّقائض واحدة من أهم خطابات السُّخرية في العصر الأموي عامة وفي الشّعر العربي خاصة لما تحتويه من سبّ وشتم واستهزاء تُحرّض الآخر على الكُره والعُدوانية.

2- تجلّت السّخرية في النّقائض من خلال التنابُز بالألقاب الذي هو محرّم أساسا في الدين الإسلامي، والطّعن في نسب الآخر وعِرضِه وأخلاقه، ووَصْمِه باللّؤم والخُبث وكلّ الصّفات التي لايرضاها المرء لنفسه.

3- برزت السّخرية في النّقائض بشقيّها المُباشر وغير المُباشر.

4- كان الغرض من شعر النقائض التسلية في المقام الأول، والسّخرية من الآخر وإضحاك الغير عليه، إلا أنها في الحقيقة أمتعت القُرَّاء باعتبارها مباراة أخرجت كثيرا من القصائد على درجة فنية رائعة.

- **المصادروالمراجع:**

المصادر:

1- ديوان جرير، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، د. ط، 1986م.

2- ابن رشيق القيرواني، العمدة ف محاسن الشّعر وآدابه، تحقيق: د.محمد قرقزان، ج2، دار المعرفة، بيروت، ط1، 1408ه/1988م.

3- أبو عبيدة معمر بن المثنى، «شرح نقائض جرير والفرزدق»، تح: محمد إبراهيم حور، وليد محمود خالص، المجمع الثقافي أبوظبي الإمارات، ط02، 1998م.

4- جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، أساس البلاغة، ج 1، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ماي 2003.

المعاجم:

5- أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي المصري، لسان العرب، مج4، دار صادر، د.ط، بيروت.

6- مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، القاموس المحيط، دار الحديث، القاهرة، مصر، د.ط، 1429ه - 2008م.

الكتب:

7- أدونيس، زمن الشعر، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط 5، 1406ه، 1986م

8- خالد محمود عزام، جرير شاعر النقائض الأموية والنزعة الدينية، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد، الأردن، ط01، 2007م.

9- شوقي ضيف، الفكاهة في مصر، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط3، د ت

10- عبد الله التّطاوي، أشكال الصّراع في القصيدة العربية، ج3، عصر بني أمية، مكتبة الأنجلو المصرية، د.ط، القاهرة، د.ت.

11- عبد النبي ذاكر، العين الساخرة أقنعتها وقناعاتها في الرحلة العربية، المركز المغربي للتوثيق والبحث في أدب الرحلة، د.ط، د.ت.

الدوريات:

12- بدوي طبانة، أدب السخرية والمجون، مجلةالبيان، ع 50، ماي 1970.

13- هاشم نغيمش الحمامي وعلي أسعد وشيماء مطاحن، منهج القرآن الكريم في التصدي لأساليب الحرب النفسية (أسلوب السخرية أنموذجا)، مجلة العلوم الاجتماعية، جامعة العلوم الإسلامية العالمية، عمان، الأردن، ع 23، مارس 2017.

هوامش وإحالات المقال

[1]- أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي المصري، لسان العرب، مج4، دار صادر، د.ط، بيروت، ص352-353.

[2]- جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، أساس البلاغة، ج 1، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ماي 2003، ص 328.

[3]- مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، القاموس المحيط، دار الحديث، القاهرة، مصر، د.ط، 1429ه - 2008م، ص755.

[4]- هاشم نغيمش الحمامي وعلي أسعد وشيماء مطاحن، منهج القرآن الكريم في التصدي لأساليب الحرب النفسية (أسلوب السخرية أنموذجا)، مجلة العلوم الاجتماعية، جامعة العلوم الإسلامية العالمية، عمان، الأردن، ع 23، مارس 2017، ص 38.

[5]- شوقي ضيف، الفكاهة في مصر، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط3، د ت، ص 10.

[6]- أدونيس، زمن الشعر، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط 5، 1406ه، 1986م، ص 29.

[7]- عبد النبي ذاكر، العين الساخرة أقنعتها وقناعاتها في الرحلة العربية، المركز المغربي للتوثيق والبحث في أدب الرحلة، د.ط، د.ت، ص 09.

8- ابن رشيق القيرواني، العمدة ف محاسن الشّعر وآدابه، تحقيق: د.محمد قرقزان، ج2،دار المعرفة، بيروت، ط1، 1408ه/1988م، ص182.

[9]- ديوان جرير، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، د. ط، 1986م، ص16.

[10] - ديوان جرير، ص 221.

[11] - المصدر نفسه، ص 433.

[12]- المصدر نفسه، ص 190.

13- أبو عبيدة معمر بن المثنى، «شرح نقائض جرير والفرزدق»، تح: محمد إبراهيم حور، وليد محمود خالص، المجمع الثقافي أبوظبي الإمارات، ط02، 1998م، (2/ 429).

14- الديوان، ص217.

15- المصدر نفسه، ص149.

[*] حُجّوا: ولعوا بالشّيء.

16- المصدر نفسه، ص 199.

[17] - المصدر نفسه، ص127.

[18] - الديوان، ص 149.

19 - المصدر نفسه، ص 104.

20 - المصدر نفسه، ص 189.

21 - المصدر نفسه، ص 190.

22- عبد الله التّطاوي، أشكال الصّراع في القصيدة العربية، ج3، عصر بني أمية، مكتبة الأنجلو مصرية، د.ط، القاهرة، د.ت، ص 126.

23- الدّيوان، ص 103.

24- أبو عبيدة معمر بن المثنى، المصدر السابق، (3/ 919).

[*] الراعي النّميري هو عبيد بن عُرادة النّميري نديم الفرزدق وصديقه ولجرير معه حادثة دعته لكتابة قصيدة كاملة فيه.

25- الديوان، ص63.

26- المصدر نفسه، ص 199.

27- المصدر نفسه، ص 199.

28 - المصدرنفسه، ص 189.

29-الديوان، ص 283.

30- المصدر نفسه، ص 200.

31-المصدر نفسه، ص 199.

32- المصدر نفسه، ص 453.

33- خالد محمود عزام، جرير شاعر النقائض الأموية والنزعة الدينية،عالم الكتب الحديث للنشر، إربد، الأردن، ط01، 2007، ص 174.

[34]- بدوي طبانة، أدب السخرية والمجون، مجلة البيان، ع 50، ماي 1970، ص8.